التيسير النحوي للقسم القرآني واستجابته الحضارية عند الدكتور شوقي ضيف

أ.د. هناء جواد عبد السادة العيساوي م.م. حاكم فضيل عطيوي

كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة بابل

Grammatical Simplification of the Oath in the Holy Quran and its Cultural Response According to Dr. Shawki Dayf

Prof.Dr. Hana'a Jawad Al-Isawi Asst.Lect. Hakim Fadeel Etewi

College of Education for Human Sciences/ university of Babylon

Abstract: The goal of this research is to release facilitation of civilization and vision that have contributed to the field as the Quranic efforts, was the choice directed to the efforts of one of the flags of grammar easing who knew his place in Arab universities and Arabic language academies, does not mean only Dr. Shawki Daif who has had a clear impact in easing the movement of development grammar to include as the Qur'an, and here will be the section of Quranic and Trakiph grammatical is the appropriate application of what Asthdvinah of this research, and it included a number of important issues. First: the goals of easing grammar and vision of cultural and site Shawqi Daif where, second: concept idiomatic for the Department of Quranic and share Shawqi Daif it, third: grammatical structures of the Department of Quranic interpretation when Shawki guest, with the result that we go out to see a civilized response to Islamic teachings and intellectual assets to facilitate the understanding of grammar of the Koran to impose the cultural specificity and the need to build a knowledge generations on a firm's assets

Key words: the Koran, Grammar, facilitation, section, Shawki daif.

الملخص: يرمي هذا البحث إلى بيان جهود التيسير ورؤيته الحضارية التي أسهمت في مجال النحو القرآني، فكان الاختيار موجهاً إلى جهود أحد أعلام التيسير النحوي الذي عرف بمكانته في الجامعات العربية ومجامع اللغة العربية، ونقصد الدكتور شوقي ضيف (1910م–2005م) الذي كان له الأثر الواضح في تنمية حركة التيسير النحوي لتشمل النحو القرآني، وهنا سيكون القسم القرآني وتراكيبه النحوية هو التطبيق المناسب لما استهدفناه من هذا البحث، وعليه تضمن عدداً من القضايا المهمة، أولاها: أهداف التيسير النحوي استجابته الحضارية وموقع شوقي ضيف فيه، وثانيها: المفهوم الاصطلاحي للقسم القرآني ومشاركة شوقي ضيف فيه، وثالثها: الصيغ النحوية للقسم القرآني وتفسيرها عند شوقي ضيف، فكانت النتيجة أن نخرج برؤية حضارية تستجيب للتعاليم الإسلامية وأصولها الفكرية في تيسير الفهم النحوي للقرآن الكريم لما يفرضه من ميزة حضارية وضرورة معرفية لبناء أجيال البلاد العربية والإسلامية على أصول راسخة.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، النحو، التيسير، القسم، شوقي ضيف.

أ . أهداف التيسير النحوي واستجابته الحضارية وموقع شوقي ضيف فيه: تاريخيا يمكن عد فكرة التيسير والتسهيل للنحو العربي قديمة إذ ترجع إلى المحاولات الأولى في كتابة الموجزات والمختصرات فيه، ومع ذلك لم تلمس هذه المحاولات فيه شيئاً سوى الإيجاز والاختصار، أما في العصر الحديث فقد بدأت محاولات التيسير والتسهيل لقواعد اللغة العربية منذ مطلع القرن العشرين، ويعد كتاب (قواعد اللغة العربية لتلاميذ المدارس الثانوية) من أوائل محاولات التيسير التعليمي الذي ضم كتابين هما (الدروس النحوية لتلاميذ المدارس الثانوية) من تأليف حفني ناصف ومحمد بك دياب والشيخ مصطفى طموح ومحمود أفندي عمر الذي تقرر تدريسه في المدارس الثانوية سنة 1903م، وقد زيدت مادتهما في ما بعد ودرست لطلاب السنة الرابعة للثانوية سنة 1905م في كتاب واحد عنوانه (كتاب قواعد اللغة العربية لتلاميذ المدارس الثانوية)[1].

(1) ظ: كتاب قواعد اللغة العربية لتلاميذ المدارس الثانوية، حفني ناصف وآخرون، المطبعة الأميرية بالقاهرة، وزارة المعارف العمومية، ط:12، 1929م، صفحات التنبيه قبل صفحة رقم (1). وقد تضمن هذا الكتاب أيضا كتاباً أعد لتدريس البلاغة العربية عنوانه (دروس البلاغة لتلاميذ المدارس الثانوية) من تأليف حفني ناصف ومحمد بك دياب وسلطان بك محمد والشيخ مصطفى طموح الذي تقرر تدريسه سنة 1892م.

ولبيان الجهود الرائدة في هذا المجال نذكر كتاب (إحياء النحو) لإبراهيم مصطفى الذي حرره بأرمان الجيزة سنة 1936م، وتم طُبع في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة في يناير سنة 1937م، وصححه واعتنى به حضرة محمد أفندي مصطفى الفقيه[2]، وقد قدم لهذا الكتاب طه حسين متحدثا عن أسلوب الكاتب والكتاب وصلتهما مع بعضهما [3]، وقد أشار مصطفى إبراهيم إلى قصده بهذا العمل بقوله: ((أطمع أن أغير منهج البحث النحوي للغة العربية، وأن أرفع عن المتعلمين إصر هذا النحو، وأبدلهم منه أصولاً سهلة يسيرة، تقربهم من العربية، وتهديهم إلى حظ من الفقه بأساليبها))[4]، وقد أشار إلى أن فكرة التسهيل والتيسير قديمة بقوله: ((على أن ذلك داء النحو قديما [يقصد التبرم من النحو والضجر بقواعده] ولأجله ألف "التسهيل" و"التوضيح" و"التقريب"، واصطنع النظم لحفظ ضوابطه، وتقييد شوارده))[5]، هذا بالنسبة لبعض الجهود الرائدة في مجال التيسير النحوي التي انتهجها شوقي ضيف فكان أول من أحيا جهود علماء العرب القدماء في نقد أصول النحو العربي وذلك عند تحقيقه ونشره لكتاب "الرد على النحاة" لابن مضاء القرطبي ت 592هـ، وذلك في عام 1947م استجابة منه لإحياء الجهد العربي القديم فهو من معالم الفكر الحضاري الرائد في هذا المجال، ليؤكد أسبقية الجهد الإسلامي على غيره من الجهود في حركة نقد العلوم، وقد قدم عددا من الأعمال المهمة والمشهورة في هذا المجال، ويمكن أن نذكر هذه الأعمال لكي نعطي للقارئ تصورا موجزا عن جهوده في التيسير التعليمي للنحو العربي كالآتي:

1. تحقيق كتاب "الرد على النحاة" لابن مضاء القرطبي في عام 1947م.
2. مشروع "تيسير النحو" مقدم إلى المجمع العلمي بمصر عام 1977م*.
3. بحث بعنوان "تيسير النحو" منشور في مجلة المجمع العلمي العدد (47) عام1981م.
4. كتاب "تجديد النحو"عام 1982م.
5. كتاب "تيسير النحو التعليمي قديما وحديثا مع نهج تجديده) عام 1986م.
6. كتاب " تيسيرات لغوية" عام 1990م.

إذ اتجه بعد الكتاب الأخير إلى تأليف "الوجيز في تفسير القرآن الكريم" وقد صدرت طبعته الأولى عن دار المعارف بمصر عام 1993م، وبعدها توجه إلى تقديم جهود في مجال القرآن الكريم، والحضارة الإسلامية وعالميتها، وشمل ذلك تأليفه "القسم في القرآن الكريم".

إن هذا الشكل الكتابي من جهود ضيف أخذت تؤثر في دارسين وباحثين في الوطن العربي وخارجه فقدمت بعض الدراسات والبحوث حول جهده هذا، ويمكن أن نذكر ما علمناه منها:

1. كتاب بعنوان " تجديد النحو ونظرة سواء" تأليف أمين عبد الله سالم، مطبعة الأمانة، مصر، ط:1، 1406هـ – 1986م. وقد تضمن آراء شوقي ضيف ضمن الآراء.
2. أطروحة دكتوراه بعنوان " مظاهر التجديد النحوي لدى مجمع اللغة العربية في القاهرة حتى عام 1984م" للدكتور ياسين أبو الهجاء، طبعت بعالم الكتاب، الأردن، ط:1، 1429هـ – 2008م. وقد تضمن آراء شوقي ضيف ضمن الآراء.
3. مجموعة أبحاث بعنوان(شوقي ضيف مسيرة من العطاء) صادرة عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر، شئون المطابع الأميرية، القاهرة، ط:1، 2010، وفيه بحثان:

أ . جهود الدكتور شوقي ضيف في تيسير النحو العربي، إيمان السعيد جلال.

(2) ظ: إحياء النحو، ابراهيم مصطفى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951م: 197.
(3)) ظ: إحياء النحو: مقدمة د.طه حسين: أ-ع.
(4) ظ: م. ن: مقدمة الأستاذ مصطفى إبراهيم: أ.
(5) ظ: إحياء النحو: مقدمة المؤلف"ب".
* يلحظ الفارق الزمني الشاسع البالغ 30 سنة بين تحقيقه الرد على النحاة ومشروعه للتيسير والسبب من المحتمل أن يكون انشغاله بالتأليف في مجال تاريخ الأدب ونقده وبلاغته.

ب . معالم التجديد النحوي عند شوقي ضيف، شهاب النمر إسماعيل.

4. بحث بعنوان "جهود الدكتور شوقي ضيف في تجديد النحو التعليمي وتيسيره" د.رافع عبد الله العبيدي منشور في مجلة آداب الرافدين العدد (58) كلية الآداب /جامعة الموصل سنة 2010م.

5. بحث بعنوان "مع الدكتور شوقي ضيف في مقدمة الرد على النحاة " د.جميل علوش في مجلة التراث العربي، لات.

6. كتاب "موقف شوقي ضيف من الدرس النحوي –دراسة في المنهج والتطبيق" د.علاء إسماعيل الحمزاوي، جامعة المينا/ كلية الآداب، لات.

7. رسالة ماجستير باللغة الإيرانية بعنوان "الآراء النقدية في النحو والبلاغة للدكتور شوقي ضيف" للباحثة شكوة سادات حسيني مقدمة إلى الجامعة الحرة بطهران، لات.

8. رسالة ماجستير باللغة العربية بعنوان" جهود شوقي ضيف التجديدية في النحو العربي – دراسة في الأسس والمنهج" للباحث خالد حميش، اشراف أ.د. صالح بلعيد مقدمة إلى كلية الآداب واللغات في جامعة مولود معمري في الجزائر، 2014م.

ويبدو من تكرار الدراسات والبحوث المنصبة على جهود التيسير النحوي وتجديده لشوقي ضيف ما يصوّر مدى الأثر الواضح الذي تركته هذه الجهود على البحث الجامعي ودرسه في الجامعات العربية، وهنا لا أريد تفصيل الكلام في هذا المجال بل أردت أن أضع في تمهيد بحثي ما يمكن عده منطلقا ضروريا في قراءة القسم القرآني ورؤيته الحضارية عند شوقي ضيف التي سبقها على نحو التراكم أو التحوّل ما يمكن تسميته بمحاولة إعادة تشكيل الاستجابة الحضارية للكتابة العربية، وذلك تماشيا مع ما ذهب إليه بعض الباحثين في الأدب العربي الحديث من الذين لاحظوا أن هناك محاولات لإعادة تشكيل الكتابة تحصل كجزء من إعادة تشكيل الحياة بعد نكسة حزيران عام 1967م[6]، وقد أشرتُ في صفحات ماضية إلى ذلك التحوّل بالكتابة واستجابتها الحضارية النامية ولعل كلمة "إحياء النحو" التي أستعملها إبراهيم مصطفى قبل شوقي ضيف تدلنا على ما في محاولات ضيف من استجابة حضارية تريد استعادة وعي حضاري يتعلق بزمن الوحي المحمدي الذي انطلقت منه الحضارة الإسلامية والعربية، وما تشكله من صراع مع كلمة " إصلاح النحو " التي استعملها يعقوب عبد النبي في عنوان لأحد كتبه لمجمع اللغة العربية في مصر سنة 1942 م [7]، وقد أعاد استعمالها عبد الوارث مبروك سعيد في عنوان كتابه " في إصلاح النحو العربي دراسة نقدية [8]، مما يعطينا تصوّرا أوليا للاستجابة الحضارية التي أحاطت بدوافع الكتابة وأصحاب الجهود التي بذلت في هذا المجال، وتصورا أوليا للكيفية التي تشكّل عليها وعي التأليف العربي الذي لم يكن شوقي ضيف بعيدا عنه بل كان جزءا لا يتجزأ من هذا الوعي الرائد للكتابة بما قدمه من جهود ذات استجابة حضارية تعتد بالتجديد النحوي وأبويته اللغوية العربية في نهضة الفكر العربي ودوره العلمي والحضاري في بناء ثقافة الأجيال العربية بناءً يقوم على الإحياء والإصلاح والوساطة بينهما وبين دعاتهما.

ب . المفهوم الاصطلاحي للقَسَم القرآني ومشاركة شوقي ضيف فيه: قبل البدء بجهود ضيف هنا يُستحسن أنْ نوطئ لها بأنّ القَسَم من الأساليب الجارية على لسان الخطاب العربي قبل الإسلام، ولعل معلقة زهير بن أبي سلمى المشهورة أشاعت لدى المتلقي العربي، وغيره ممن قرؤوا الشعر العربي القديم فعلَ القسم، واستعماله، وذلك حين يقول: فأقسمت بالبيتِ، الذي طَافَ حَولَهُ رجالٌ بَنَوهُ، من قريشٍ، وجُرهُمِ يَمينـا، لَنِعمَ السيدانِ وُجدتُمـا على كلِّ حالٍ، مِن سَحيلٍ، ومُبْرِمِ[9]

(6) ظ: الأدب العربي بعد الخامس من حزيران (يونيو)، شكري محمد عياد، مؤتمر الأدباء العربي السابع- مهرجان الشعر العربي، بغداد، 1969م:3-14.

(7) تعد فكرتا الإحياء والإصلاح من أهم الأفكار القيادية للنهضة العربية ورجالاتها وهما كلمتان متعارضتان في عرف الحضاريين فالإحياء تيار سلفي إسلامي يستعيد فكر الغزالي وابن تيمية وابن القيم الجوزية وأبي يعلى المودودي أما الإصلاح فتيار أصولي يستعيد فكر المعتزلة وابن رشد وابن خلدون وابن حزم والشاطبي، وبالتالي يقاوم الأول الليبرالية الغربية مقاومة مسلحة، أما الثاني فيعارضها معارضة رافضة بأسلوب متوازن ومعتدل، ظ: الحضارة والحداثة في الفكر العربي المعاصر: 25-26.

(8) ظ: في إصلاح النحو العربي – دراسة نقدية، تأليف: عبد الوارث مبروك سعيد، دار القلم، الكويت، ط:1، 1406هـ - 1985م:123.

(9) شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلم الشنتمري، تحقيق د. فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: 3، 1400 هـ - 1980م: 14- 15.

وقد ورد فعل القسَم ومشتقاته في القرآن الكريم ومنه قوله تعالى من سورة الواقعة/76: ﴿وَمِن ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٦﴾ وقوله تعالى من سورة المائدة/53: ﴿وَمِن ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا ﴾، وكذلك قوله تعالى من سورة الفجر /5: ﴿وَمِن ٱللَّهِ وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَ ٱللَّهِ ﴾.

والقَسَم لغة: اليمين، والمُقْسِم الرجل الحالف، وأقسَم يقسِم إقساما [10]. أما القسم عند النحويين فهو أسلوب لتأكيد الكلام[11] وقد بحث العلماء القسم في القرآن الكريم مستقلا في كتاب نحو ما نجد ذلك عند الشيخ ابن قيّم الجوزيّة صاحب كتاب (التبيان في اقسام القرآن) وأوّل ما يشير فيه إلى أنّ الله سبحانه ((يقسم بأمور على أمور. وإنما يقسم بنفسه الموصوفة بصفاته، وآياته المستلزمة لذاته وصفاته. وإقسامه ببعض المخلوقات دليل على أنّه من عظيم آياته.))[12]، والقسَمُ في القرآن الكريم نحو ما يذهب أحد الباحثين المحدثين: ((ظاهرة بيانية جميلة؛ إذ يعبّر بصور مادية وواقع حسي مشهود، على صور أخرى معنوية وحقائق غير مشهودة.))[13]، ويذهب إلى أنّ في القسم إعظام للمقسم به والمقسم عليه.ولإعظام المقسم به فوائد منها: لفت الأنظار إليه ليستفاد منه، والتفكير في ظواهر الكون، وما خلق الله عزّ وجلّ لما فيه من عجائب توحي بعظمته سبحانه[14]، أما بالنسبة لشوقي ضيف فقد أفرد للقسم في القرآن الكريم كتيبا صغيرا نشِر في سلسلة اقرأ العدد (666) الصادرة عن دار المعارف بمصر سنة 1422 هـ، وفي مقدمته ذكر أنّه كان يرجع في هذا الموضوع إلى كتاب ابن الجوزية، وهو يريد أنْ يضع بجواره عرضا مبسطا دقيقا تيسيرا على القرّاء، وأشار إلى الحكمة في قَسَم الله تعالى المتكرر في القرآن بقوله: ((وهو إنْ كان لإقناع المؤمن فهو مقتنع بكلام ربه ولا يحتاج إليه، وإنْ كان لإقناع الكافر فهو لا يقتنع به، لأنه مكذّب لكل ما يسمعه من القرآن، فما الحكمة إذن في القسم القرآني؟ ولعل خير جواب أنّ العرب كانوا يكثرون من القسم على كلامهم، والقرآن نزل بلغتهم، فأكثر الله من استخدام القسم في كلامه تأكيدا له مجاراة لهم. وقد يقال أيضا لماذا لم يكتفِ الله في القرآن بقسمه بنفسه، وأقسم مرارا بمخلوقاته؟ والجواب أنّ العرب كانوا يعظمون تلك المخلوقات ويقسمون بها فحاكاهم القرآن في ذلك للفت العرب إليها والدلالة على قدرته العظمى في خلقها وصنعها وما سخّرها له.))[15].

من الواضح في ما أبداه ضيف هنا من تقرير بخصوص الحكمة الإلهية في القَسَم القرآني كان منطلقا من فهمه اللغوي والأدبي، ومقيّدا استجابته إليها بزاوية حضارية مخصوصة بالعرب؛ وقد يُلحظ ذلك بتعويله على مبدأ المجاراة والمحاكاة العربيتين واقترانهما بالتأكيد والدلالة على عظمة الخلق والصنع الإلهيين؛ فمنظوره الحضاري للحكمة من استعمال القسم القرآني متجهة نحو تخصيص حضاري يسوّغ استعمال التعبير مع أنّ هناك أقسام قرآنية جاءت على لسان من لا ينتمي للعرب وزمانهم، ويمكن أن نستدل على هذا بما جاء بأول شواهده القرآنية في كتيبه حينما قال:((أما القسم بالله فجاء في سورة يوسف على لسان إخوته حين لاحظوا أن أباهم يعقوب يبكي باستمرار على فقد أخيهم يوسف حتى أبيضّت عيناه من الحزن عليه، فقالوا له: ﴿وَمِن تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا ٱللَّهِ ﴾[16]، ومن يرجع إلى ما ذكرته من نص لابن الجوزية سيرجح التعظيم الإلهي وبيان العظمة مطلقاً تفسيرا للحكمة الإلهية في القسم القرآني؛ ويمكن أنْ يُشفع هذا الترجيح بما ذهب إليه ابن الجوزية بقوله: ((وإنما يقسم الله سبحانه من كل جنس بأعلاه، كما أنه لما أقسم بالنفوس أقسم بأعلاها، وهي النفس

(10) ظ: لسان العرب، طبعة دار المعارف المحققة: مج/5/ج/41: 3630- 3631.
(11) ظ: كتاب سيبويه لأبي بشر عمرو الملقب بسيبويه ت 180 هـ، ويليه تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب، في علم مجازات العرب لمؤلفه يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري، تح. محمد الحسين الأعلمي، ط:3، 1410 هـ- 1990م: 1/ 531.
(12) التبيان في اقسام القرآن، للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيّم الجوزية ت 751 هـ، صححه وعلق عليه فضيلة الشيخ طه يوسف شاهين من علماء الأزهر، دار الكاتب العربي، لا ط، لا ت: 3.
(13) ظاهرة القسم في القرآن الكريم، فارس علي العامر، مهر، إيران، منشورات أنوار الهدى، ط:1، 1414 هـ: 37.
(14) ظ: م. ن: 39.
(15) القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط: 1، ضمن سلسلة اقرأ عدد[666]:2001م، : 6.
(16) القسم في القرآن الكريم: 9.

الإنسانية. ولما أقسم بكلامه أقسم بأشرفه وأجله، وهو القرآن. ولما أقسم بالعلويات أقسم بأشرفها وهي السماء، وشمسها وقمرها، ونجومها. ولما أقسم بالزمان أقسم بأشرفه، وهو الليالي العشر. وإذا أراد سبحانه أن يقسم بغير ذلك أدرجه في العموم))[17]. وقد التفت إلى ذلك أيضا فارس علي العامر في ما ذكرت له من نص، وأضاف عليه الاستفادة والتفكير، وفي نقد استجابته الحضارية يمكن هنا أن نبيّن هذه الحكمة في القسم القرآني فنقول بأنّ إظهار التعظيم من خلال القسم فيه تعظيم للشعور الإنساني وتعظيم لإحساسه بوجوده الخارجي والداخلي الذي يتجلى في معاني المقسم به والمقسم عليه، وبهذا يمكن ترميم الاستجابة الحضارية الذي توسل بها شوقي ضيف في تفسير الحكمة الإلهية في القسم القرآني، فمع تفكير ضيف بالمنفعة من عدمها بالنسبة للمؤمن والكافر من القسم إلاّ أنه لم يتجاوز القيود الظرفية في التفسير التي جعلته يُضيّع في القسم الإلهي رؤية إنسانية توحّد كلّ بني الإنسان حضاريا.

أما في ما يتعلق بالخطة المُيسّرة التي وضعها ضيف لعرض مباحث القسم في القرآن الكريم، فقد كانت في بابين احتوى كل منهما على ثلاثة فصول ؛فكان الباب الأول مخصصاً للمقسم به، وجعله على ثلاثة فصول: فصل عن الذات العلية والملائكة والقرآن، وفصل ثان عن الظواهر الكونية، وفصل ثالث عن نفس الإنسان وما يتصل به من القلم في الكتابة والخيل في الحرب والأماكن المقدسة.وما يخص الباب الثاني المخصص للمقسم عليه فقد كان في ثلاثة فصول أيضا:فصل عن أصول الإيمان، وفصل عن أحوال الناس، وفصل عن المعاد وما يرتبط به من البعث والحساب والجزاء[18].ويبدو من الخطة المتبعة في تفصيل مباحث الكتيب أنّها مستنتجة مما وجده ضيف موزعا في كتاب ابن قيّم الجوزية .وقد تعرض ضيف إلى بعض تراكيب القسم القرآني مُبديا رأيه في توجيهها وتبسيطها، وهنا يمكن تتبعها وفرزها في كتيبه كالآتي:

1. لا الزائدة في صيغة القسم.
2. ال الداخلة على المقسم به.
3. الحذف في جملة القسم.
4. الترابط في جملة القسم.
5. استعمال اللام في جواب القسم.
6. استعمال (بل) في جواب القسم.
7. الاختلاف في جواب القسم.
8. الاستفهام في جواب القسم.

ج . الصيغ النحوية في القسم القرآني وتفسيرها عند شوقي ضيف:

1. لا الزائدة في صيغة القسم:

وأول ما يعرضه من سورة المعارج/40، قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴾، يقول ضيف: ((ولا مع "اقسم" ليست للنفي وإنما هي لتأكيد القسم. والمراد بالمشارق والمغارب مطلع الشمس والقمر ومغربهما))[19]، ويطالعنا في الظاهرة ما ذهب إليه أبو جعفر النحاس ت 338 هـ حين تعرض في إعرابه إلى قوله تعالى: "فلا أقسمُ بالخنّس – سورة الشمس/15"، إذ يقول: "لا"زائدة للتوكيد أي فأقسم بالخنس[20]، وفي مكان آخر يتعرض ضيف لهذه المسألة قائلا: ((لا النافية في أول هذه الصيغة زائدة لتأكيد القسم))[21]، أما في قوله تعالى من سورة البلد/1: ﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴾، فيقول عنها: (("لا اقسم" أي أقسم، ولا النافية لا تدل على النفي إذ هي زائدة لتأكيد القسم، وقيل بل ليست زائدة إذ أصلها امتناع عن القسم تحرجا ثم يكون القسم. وشاع هذا الاستعمال عند العرب، وأصبحت لا كأنها مزيدة واستعمله القرآن. والقول بزيادتها

(17) التبيان في اقسام القرآن: 74.
(18) ظ: القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف: 5-6.
(19) م. ن: 11.
(20)ظ: إعراب القرآن لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس ت 338هـ، تحقيق د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط:2، 1405 هـ -1985م: 160/5.
(21) القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف: 24.

للتأكيد أولى وأوضح.))[22]، وفي قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ أورد النحاس ثلاثة آراء، الأول: كونها صلة، والثاني: بمعنى ألا، والثالث: قول أهل التأويل، وممن رواه الحسن عن مجاهد بأنه رد لكلامهم ثم ابتدأ القسم[23]، ومن المحدثين في القرن العشرين ممن أشار إلى دلالتين مرجحا دلالة التوكيد على النفي وزيادتها أيضا[24]. ومن هنا يمكن أن نناقش تعدد التوجيه في "لا" الداخلة على "اقسم"، فالقراءة الحضارية لا تتقيد بالتقدير المعنوي للأداة اللغوية بمعنى أداة أخرى؛لأنّ هذا النوع من التوجيه يسيء لاستجابة الاستعمال حضارياً، إنما تفهم الأداة اللغوية من خلال الاستجابة الحضارية للاستعمال الذي يتبناه النص القرآني ؛لأنّ استبعاد دلالة النفي من "لا"؛ يردأ تناقضها ودلالة الفعل، ويلحظ اختيار التوكيد واستبعاد النفي في دخول "لا" على فعل يقع بمجرد الخطاب، كقول الشاعر:لا لا أبوحُ بحب بثنة[25].وهو قد أباحه بخطابه.

2. ال الداخلة على المقسم به:

وفي قوله تعالى:"والفجر"سورة الفجر/1 يقول ضيف:((وأل في الفجر للجنس وهو المتبادر، وقيل للعهد، وهو فجر الليالي العشر التالية، وقيل بل هو يوم عرفة التاسع من ذي الحجة لقول الرسول ﷺ، الحج عرفة، وقيل بل هو فجر يوم نحر الأضاحي في العاشر من ذي الحجة وهو يوم الحج الأكبر.))[26]، وقد ذهب ابن قيم الجوزية إلى أنّ "والفجر" خفض بواو القسم وعن ابن عباس في معناه ثلاثة معانٍ: وهي أنّه: فجر السنة المحرم، وأنه النهار، وانه صلاة الفجر، وعن مسروق قوله: هو فجركم هذا، وللعلماء اختلاف فيه أيضا، فأهل الكوفة يقولون: هو البياض، وأهل المدينة يقولون: هو الحمرة، وحكي عن العرب: ثوب مسفّق ومشفق أي مصبوغ بالحمرة.[27]، ولام العهد تدخل على الاسم غير العلم مثل النجم وكان المعهود الثريا ثم غلب على كل نجم كان بين المخاطبين فيه عهد، فسميت"أل" فيه للعهد [28]، أو"ال" للجنس وهنا جنس النجوم، وهو الرأي الذي أيده ضيف، ومال إليه في قوله تعالى من سورة النجم/1: ﴿وَمِن قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن﴾ يقول ضيف: ((أقسم الله – عز سلطانه– بالنجم الدال بسطوعه ليلا على قدرته العظيمة. واللام فيه للاستغراق أو للجنس، وقيل: بل هي للعهد، والمراد، إذ يسميها العرب باسم النجم، سبعة نجوم ولا يكاد السابع فيها يرى. وقيل: بل هي اثنا عشر نجما صغيرا، ويروى أن الرسول ﷺ كان يراها لقوة بصره.))[29]، واللام لاستغراق الجنس *ويرى ابن الجوزية: إنّ المراد بالنجم هنا هو النجوم التي ترمي الشياطين عند استراق السمع وهي آيات من آيات الله لحفظ الدين والوحي المنزل على الرسول ﷺ [30]، إلا أن ضيف لم يأخذ به.وفي قوله تعالى من سورة الطور/1–3، وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ۝٣٨ ٱللَّهِ﴾، يقول ضيف: ((وتنكير الكتاب والرق للتفخيم أو للدلالة على أن الناس لا يعرفونه. ويجوز أن يكون الرق المنشور هو نفس الألواح مجازا.))[31]، وقد طرح ابن الجوزية بعض الآراء في المقصود ب"كتاب مسطور" نحو ما فعل الطوسي (ت460هـ) وهي أنه اللوح المحفوظ، أو أنه يتضمن أعمال بني آدم، أو أنه الكتاب المنزّل لتضمنه ربوبيته تعالى غير أنّ الطوسي رجح أنه صحائف الأعمال وأشار

(23)ظ: إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس: 5/ 227.
(24)ظ: إعراب القرآن، محمد جعفر الشيخ إبراهيم الكرباسي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط: 1، 1422 هـ - 2001م:8/ 633.
(25) ظ: شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (منهج السالك إلى ألفية ابن مالك)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي بيروت، ط:1، 1375هـ - 1955م: 2/ 411.
(26) القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف: 28.
(27) إعراب القرآن للنحاس: 5/ 217.
(28) شرح المفصل للزمخشري، موفق الدين ابن يعيش ت 643 هـ، تحقيق:إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، منشورات محمد علي بيضون، ط:1: 1422هـ - 2001م: 1/ 127.
(29) القسم في القرآن الكريم، د.شوقي ضيف: 22.
* يقول أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي ت 210 هـ في مجاز القرآن: "والنجم النجوم ذهب إلى لفظ الواحد وهو في معنى الجمع"، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، تقديم أمين الخولي، السعادة، مصر، ج/1 في 1375 هـ -1955م، وج/2 في 1962م: 2/235.
(30) التبيان في أقسام القرآن: 153.
(31) القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف: 44.

إلى الفراء، أما ابن قيم الجوزية فالرأي الأقوى لديه أنّه الكتاب المنزّل[32]، إذ لا يميل ضيف إلى التوسع في تأويل عهد معين للألف واللام الداخلة على المقسم به لحذره من الانقياد إلى طرقه المذهبية على الرغم من أنه لا يجد دليلا يرجّح اختياره الاستغراق من دون العهد؛ وهذا لا يسوّغه سوى خضوعه لسلطة الأبوية الحضارية لسلفه.

3. الحذف في جملة القسم:

وفي قوله تعالى من سورة الليل /1: ﴿وَمِن أَقۡبَلَنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا﴾ يقول ضيف:((وفعل يغشى في السورة ليس معه مفعول به بينما في سورة الشمس متصل به ضمير يعود على الشمس، فالليل هناك تغشى ظلمته الشمس، أما هنا فظلمته عامة وتغشى الدنيا وكل ما فيها حسب الدورة الشمسية، وهي عند الجغرافيين يمتد من مغرب الشمس إلى طلوعها، أما عند الفقهاء فمن مغرب الشمس إلى صلاة الفجر.))[33].أمّا النحاس فيذهب إلى أنّ الضمير في قوله تعالى من سورة الشمس/4: ﴿وَمِن أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ﴾ يعود على الشمس[34]، وأمّا في قوله تعالى: ﴿وَمِن أَقۡبَلَنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا ٱللَّهِ﴾ – سورة الليل "يقول النحاس" ((حذف المفعول كما يقال: ضرب زيد، ولا يجيء بالمضروب أمّا لمعرفة السامع، وأمّا أن يريد أن تبهم عليه. قيل: المعنى والليل إذا يغشى كل شيء بظلمته فيصير له كالغشاء، وليس كذا النهار وعلى هذا [35] قول الذبياني))[36]: فإنّك كالليلِ الذي هو مُدركي وإنْ خلت أن المنتأى عنكَ واسعُ.

ويذكر ضيف آراء المفسرين في قوله تعالى: "والعصر" سورة العصر/1، ومنها: ((وقيل إن القسم بالعصر على حذف مضاف وأنه قسم بصلاة العصر المذكورة في قوله تعالى من سورة البقرة/ 238: ﴿وَمِن قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ﴾، وسميت وسطى لتوسطها بين صلاة الظهر في النهار وصلاة المغرب في ابتداء الليل))[37]، ويقول النحاس في استعمال "العصر": ((والتقدير وربّ العصر. ويدخل فيه كل ما يسمى بالعصر ؛ لأنه لم يقع اختصاص تقوم به حجة، فالعصر الدهر، والعصر العشي، والعصر الملجأ)) [38]، ومما هو واضح إن ضيف اختلف مع النحاس في تحديد المحذوف بين المضاف والمضاف إليه وذلك لعدم وجود حجة ترجّح المقصود بالعصر نحو ما أشار النحاس.

وفي سورة الذاريات /1–4. وهو قوله تعالى: ﴿وَمِن وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ﴾ يقول ضيف: ((أقسم الله في هذه الآيات بصفات حُذفت موصوفاتها، وعطفها يدل على أنها صفات لموصوف واحد كما هو الغالب في مثلها. والموصوف هو الرياح الدالة على قدرة الله، إذ بدونها كانت تهلك الدنيا ولا يكون فيها زرع ولا ضرع. ونُقل عن علي بن أبي طالب عليه السلام وغيره أن هذه الصفات لموصوفات متعددة: "والذاريات". الرياح، و"فالحاملات وقرا" السحب. و" فالجاريات يُسرا" السفن في البحار، و"فالمقسمات أمرا" الملائكة. وتذهب كثرة المفسرين إلى أن جميعها صفات للرياح، وهو الأرجح لعطفها بالفاء كما ذكرنا. وعن عبد الله بن عمر أن الرياح ثمان: أربع منها رحمة وأربع عذاب، أما الرياح الرحمة فالناشرات والمبشرات والذاريات والمرسلات، وأما رياح العذاب فالعاصفات والقاصفات والصرصر والعقيم))[39]. ومن أوائل من تعدد عندهم الموصوف المحذوف في الرواية عن الإمام عليه السلام هو أبو عبيدة ت210هـ[40]، وممن

(32) ظ: تفسير التبيان للشيخ الطوسي ت 460هـ، مطبعة النعمان، النجف الاشرف، منشورات مؤسسة الاعلمي، بيروت، لاط، 1389هـ - 1969م: 400/9، وظ: التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية: 166.
(33) القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف: 31.
(34) إعراب القرآن للنحاس: 235/5.
(35) إعراب القرآن للنحاس: 5/ 241.
(36) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق وشرح: كرم البستاني، دار صادر، دار بيروت، بيروت: 1383هـ - 1963م: 81
(37) القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف: 33.
(38) إعراب القرآن للنحاس: 286/5.
(39) القسم في القرآن الكريم: د. شوقي ضيف: 34.
(40) ظ: مجاز القرآن لأبي عبيدة: 2/ 225.

استعان بها كذلك ابن قتيبة ت276هـ في غريبه[41]، وكذلك النحاس فقد ذهب إلى وجود حذف في الموصوف بالذاريات وهو "الرياح" إلا أنه لا يعمم هذا الموصوف المحذوف على بقية الصفات التي جاءت بعد الذاريات وهي الحاملات والجاريات والمقسمات بل يذهب إلى صحة ما نقل عن الإمام عليه السلام أيضا [42] نحو ما هو مذكور في نص ضيف الذي ذهب إلى عدم ارتضائه ورجح أنّ الموصوف واحد وهو الرياح على الرغم من تأييد ابن الجوزية ومن قبله ابن قتيبة لرواية تعدد الموصوف التي أيدها كذلك النحاس ومن قبله أبو عبيدة وكذلك الزمخشري في كشافه ت538هـ[43]، ولا أعرف كيف عرف ضيف أن كثرة المفسرين تؤيد ما ذهب إليه.

4. الترابط في جملة القسم:

وفي قوله تعالى من سورة العاديات/ 1-4: ﴿ وَمِن عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ ٱللَّهِ ﴾، يقول ضيف:((الضمير في"به"إما عائد على الصبح والباء ظرفية أي في الصبح، وإما عائد على العدو، والباء سببية.))[44]، فعودة الضمير إحدى وسائل الترابط بين الجمل وبين النص والسياق.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَمِن لِيَ أَبِيَ أَوۡ يَحۡكُمُ ٱللَّهُ ٱللَّهِ ﴾ يقول ضيف في استعمال اسم الإشارة: ((والإشارة ب"هذا" مع بيان اسم الإشارة بالبلد إعزازا له، والله يقسم به لمكانته المقدسة، إذ جعله حرما آمنا وجعله حرم خليله إبراهيم ودار جد الرسول ﷺ: إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، وبنيا فيه الكعبة، وأصبحت البيت الحرام قبلة للناس شرقا وغربا، وجعل الحج إليه كفّارة لذنوب المسلمين))[45]. ويرى النحاس: ((في قوله جل وعز "البلد" ثلاثة أقوال: يكون نعتا لهذا، ويكون بدلا، أولاها الثالث أن يكون عطف البيان والنحويون يذكرون عطف البيان على جملة وما علمت أن أحدا بيّنه والفرق بينه وبين البلد إلا ابن كيسان، قال: الفرق بينهما أن معنى البلد أن تقدر أنك إن ذكرت الاسم الأول لم يعرف إلا بالثاني وإن ذكرت الثاني لم يعرف إلا بالأول فجئت مبينا للأول قائما له مقام النعت والتوكيد.))[46]، فالاثنان يتوكآن على سنن نحوية في تفسير الترابط المعنوي بين اسم الإشارة "هذا" و"البلد"، ويقدمان استجابة حضارية دينية أصيلة لمكانة الكعبة المشرفة تربط الدين الحنفي لنبي الله إبراهيم وابنه ني الله إسماعيل والدين الإسلامي لنبي الله محمد عليه الصلاة والسلام. أما قوله تعالى من سورة البلد/3: ﴿ وَمِن ﴿٨٩﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ ٱللَّهِ ﴾، فيقول ضيف فيه: ((يمكن أن يكون القسم بكل والد وولده، وكأنه يشمل كل من خلقهم الله إعزازا لهم. وقيل بل المراد آدم وذريته، ويلتقي هذا الرأي مع الرأي السابق، وقيل: بل المراد إبراهيم عليه السلام الذي اتخذ مكة دار ابنه اسماعيل وزوجته هاجر، ودعا ربه لمكة قائلا: " رب اجعل هذا البلد آمنا وارزق أهله من الثمرات – سورة البقرة/126"وفي هذا القسم تعريض بمشركي مكة من ذرية إبراهيم بأنهم انحرفوا عن طريقه من التوحيد وهو يدعوهم إلى عبادة الله.)) [47] وممن أيد أنّ المقصود هو آدم وولده هو ابن قتيبة في غريبه [48]وقد ذهب النحاس إلى أنّ (("ووالد" واو عطف لا واو قسم، وكذا (وما ولد) وقال أبو عمران الجوني "ووالد" إبراهيم ع وولده، وروي عن ابن عباس الوالد الذي ولد، وما ولد، ولده. قال أبو جعفر: وهذا على أنه عام وكأنه أبين ما يقال، ويكون التقدير ووالد وولادته حتى يكون "ما" للمصدر.))[49]، ومن ينطلق من منظور الترابط بين جملة القسم والجملة المعطوفة عليها سيرجح الرأي المنقول عن أبي عمران الجوني الذي أشار إلى نبي الله إبراهيم وولده

(41) ظ: تفسير غريب القرآن، لأبي محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة ت 276هـ، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م: 420.
(42) إعراب القرآن للنحاس: 4/235-236.
(43) التبيان في اقسام القرآن، لابن الجوزية: 173-174. وتفسير الكشاف للزمخشري ت538هـ، تح:محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، منشورات محمد علي بيضون، ط:3، 1424هـ - 2002م:4/385.
(44) القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف: 42.
(45) القسم في القران الكريم، د. شوقي ضيف: 45.
(46) إعراب القرآن للنحاس: 5/227- 228.
(48) ظ: تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: 528.
(49) إعراب القرآن للنحاس: 5/ 228.

إسماعيل، ومع أنّ ضيف لم يرجحه إلاّ أنّه أثبته بين الآراء ويبدو لي أنّه ترابط حضاري عمراني، ومع ذلك تخطاه ضيف في استجابته.

5. استعمال حرف اللام في جواب القسم:

وفي قوله تعالى من سورة الضحى/5: ﴿وَمِن ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ﴾ يقول ضيف: ((اللام للابتداء لتأكيد مضمون الجملة وإعطاء الله لك إعطاء مستمرا))[50]، وممن تعرض لهذه اللام من المحدثين الكرباسي في إعرابه وذهب إلى أنّ اللام للتوكيد والواو قبلها حرف عطف وسوف تفيد الاستقبال[51]، ودلالة التأكيد المستقبلي باستعمال اللام وسوف واقعة في علة لمعلول مترتبة عليه، والخطاب هنا متوجه للرسول محمد ﷺ ؛ وعدا له بالعطاء الإلهي والرضا الذاتي، وهذا يتناسب ومبدأ التعظيم للدعوة الإسلامية التي بعث بها، وهذا معطى من خلال دلالة القسم الزمني "والضحى"، فالاستعمال اللساني للتوكيد المستقبلي منح صيغة القسم دلالة زمنية ذات مدلول زمني مستمر، وهذا رباط بين زمن الضحى ودعوة الرسول ﷺ بأنها عطاء لا ينقطع زمنيا. أمّا في قوله تعالى من سورة الطارق/4: ﴿وَمِن إِذَا ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٦ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ﴾ فيقول ضيف:((لمّا" في قوله تعالى: "لما عليها حافظ" قرئت بتشديد الميم، بمعنى إلا "وإنْ" قبلها بالسكون نافية أي وما كل نفس إلا عليها حافظ. وقرئت لما بتخفيف الميم دون تشديدها، وحينئذ تكون إن مخففة من إنّ المؤكدة الثقيلة، واللام في لما الداخلة على خبر إنّ الثقيلة فارقة بينهما وبين إنْ النافية، وما زائدة أي إنّ كل نفس عليها حافظ رقيب. والآية ترمز إلى البعث. إذ تشير إلى أعمال الإنسان الحسنة والسيئة تسجل عليه مما يستلزم المحاسبة عليها، فيثاب على الحسنة منها ويعاقب على السيئة. ويتضمن هذا الجواب – وما أفاده من البعث والحساب أوالجزاء – لأن الله سيحاسبهم عليها حسابا عسيرا.))[52]، وقد قُرئت (لما) قراءتين من دون تشديد وهي ((قراءة أبي عمرو ونافع والكسائي، وقرأ أبو جعفر والحسن "إنّ كل نفس لمّا عليها حافظ" قال أبو جعفر: القراءة الأولى أولى بيّنة في العربية تكون ما زائدة و"إنْ" مخففة من الثقيلة هذا مذهب سيبويه، وهو جواب القسم، والقراءة الثانية تكون(لمّا) بمعنى ألا عليها. قال أبو جعفر: حكى سيبويه، أقسمت عليك لمّا فعلت، بمعنى ألا فعلت.))[53]. وبهذا يكون التركيب قد نُظر إليه بصيغتين؛ الأولى: إنْ المخففة +...+لام فارقة+ ما زائدة، والثانية: إنْ النافية+...+ لمّا بمعنى ألا، والتوجيهان يستهدفان فهم التركيب توازيا والفهم الكلي لنص القرآن الدال على وجود المراقبة الإلهية للنفس المخلوقة، ففهم التركيب قد أصلح من طبيعة الاستجابة للفهم الكلي للنصوص القرآنية.

6. استعمال حرف (بل) في جواب القسم:

وفي قوله تعالى من سورةق: ﴿وَمِن قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ۝٢٦ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ﴾، يقول ضيف: ((وتبدأ الآية [بعد القسم] بحرف "بل" ويستعمل في الإضراب الإبطالي مثل جاء زيد بل عمرو لنفي المجيء عن زيد وإثباته لعمرو، وليس لها في هذا الموضع شيء من هذا المعنى. ويمكن أن يقال فيه إنها فيه لإضراب انتقالي من القسم بالقرآن المجيد إلى تكذيب إنذار الرسول لهم بالبعث والمعاد))[54]. وفي مسألة "بل" يمكن أنْ أورد ما سجله حسن عباس وهو من المعاصرين على عمل "بل" إذ يقول: إنّ "بل" تأتي حرفا للإضراب والاستئناف إذا تلتها جملة ولها معنيان: الأول: إضراب إبطالي ومعناه إلغاء الحكم عما قبلها وإثباته على ما بعدها. والثاني: إضراب انتقالي وهو لا يعني إلغاء الحكم الذي قبلها إنما يعني تقريره ومن ثم الانتقال منه إلى حكم آخر بعد "بل" [55]. ويبدو لي أنّ ضيف يؤيد الإضراب

(50) القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف: 62.
(51) إعراب القرآن للكرباسي: 8/ 655.
(52) القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف: 86.
(53) إعراب القرآن: النحاس: 5/197-198.
(55) حروف المعاني بين الأصالة والحداثة – دراسة: حسن عباس، اتحاد الكتاب العرب – دمشق، 2000م: 37.

الانتقالي لملاحظته المعنى في السياق قبل "بل" فالأبطال ليس له وجه من الانسجام، إذن هذا الاختيار محكوم باستجابة مؤسسة على عصمة القرآن الكريم من الوقوع في هكذا تناقض.

وفي قوله تعالى من سورة ص/1-2: ﴿ وَمِن قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٱللَّهِ ﴾، يقول ضيف: ((و"بل" في صدر الصيغة للإضراب الإبطالي الذي يفيد النفي وهو ما يجعل كثيرين من المفسرين للذكر الحكيم يقولون إنها هي وصيغتها لا تصلحان أن تكون جوابا للقسم، وقالت كثرتهم إن جواب القسم محذوف تقديره إن القرآن لحق. وقيل الجواب اللآية الثالثة: ﴿ وَمِن ۝٨٦ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا ٱللَّهِ ﴾، وكم مثل "بل" لا تصلح أن تكون صدرا لجواب قسم. وقيل جواب القسم الآية الرابعة عشرة في السورة: ﴿ وَمِن قَالَ إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعۡلَمُ ﴾، وقيل بل الآية الرابعة والخمسون: ﴿ وَمِن فَصَبۡرٞ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ ﴾، وقيل بل الآية الرابعة والستون: ﴿ وَمِن نَجِيّٗا قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ﴾، والآراء الثلاثة بعيدة لابتعاد الجواب عن القسم ابتعادا كثيرا.))[56]، ومن يقرأ عبارة ضيف يجدها تؤيد رأي الفراء ت 207 هـ الذاهب إلى أنّ "بل" وصيغتها في قوله: ﴿ وَمِن مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٱللَّهِ ﴾- ص" هو يمين اعتراض كلام من دون موقع جوابها وصار جوابها جوابا للمعترض ولها أيضا، وقد ورد الرأي الثالث فيما ذكره ضيف في تعيين جواب القسم عند الفراء ولم يؤيده[57].

وقد عقب ضيف: ((وقالت طائفة إنّ صيغة ﴿وَمِن مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ٱللَّهِ ﴾ جواب القسم ولا ضير في أن تتصدره "بل" لأن المراد بها تأكيد الجواب، وكأن معناها في الصيغة معنى إنّ المؤكدة. وقيل إنّ هذا الاستعمال ليس له أصل في العربية، ولا مانع أنْ يكون الله استعمله في القرآن بسورة –ص– لأول مرة.))[58]، وهي استجابة حضارية جعلته لا يمانع فرادة الاستعمال؛ ما دام القرآن الكريم قد خرق العادة في إعجازه بالنسبة لكلام العرب.

7. الاختلاف في جواب القسم:

أشار ضيف إلى بعض الاختلافات بين الآراء في تعيين جواب القسم، ففي قوله تعالى من سورة البروج/2: ﴿ وَمِن قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ﴾، يقول ضيف: ((وأخذت برأي الفراء[59] في أن وَمِن قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ﴾ جواب القسم وما يتصل بها. ورأي بعض المفسرين أن الجواب الآية الثانية عشرة: وَمِن فَصَبۡرٞ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ ﴾ أي على من يفتنون المؤمنين. وأولى من ذلك أن يكون الجواب الآية العاشرة: وَمِن سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا ﴾ من كفار مكة وأذاقوهم صنوف الأذى والعذاب وَمِن عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ۝٨١ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا ﴾))[60]

هذه الآيات ذكرها ضيف جوابا للقسم في قوله تعالى: وَمِن إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٦ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا ﴾ من سورة البروج فيذكر رأي الفراء في أنّ قوله تعالى: وَمِن قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ٱللَّهِ هي الجواب في التفسير مع أنّ الفراء لم يجد العرب تدع القسم بغير لام يُستقبل بها أو "لا" أو "أن" أو "ما"[61] فإن يكن كذلك – والكلام للفراء– ((فكأنه

(56) القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف:78- 79.
(57) معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء 207هـ، عالم الكتب، بيروت، ط:3، 1403هـ -1983م: 3/ 397.
(58) القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف: 79.
(59) ظ: معاني القرآن للفراء: 253/3.
(60) القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف: 81.
(61) ظ: معاني القرآن للفراء: 3/ 252.

مما ترك فيه الجواب: ثم استؤنف موضع الجواب بالخبر، كما قيل: يا أيها الإنسان في كثير من الكلام))[62]، ومع ذلك لم يذكر ضيف علة اختياره سوى ميوله إلى رأي الفراء الذي رجعت إليه، ووجدته قد أورد عددا من الآراء أيضا، ولعل ميول ضيف لهذا الاختيار هو بفعل منظور تخصصي تاريخي وأدبي فالآية المختارة جاءت بعد جمل القسم مباشرة، وفيها ارتباط تاريخي بإحدى الحضارات البائدة، وهي حضارة أصحاب الأخدود، ويبدو لي أنّ محتوى القسم المتضمن لبروج التاريخ الزمني يعمل على ترابط اختيار ضيف للجواب مع محتوى القسم من ناحية أدبية وتاريخية، أما في قوله تعالى من سورة التين/4-6: ﴿وَمِن فِي يُوسُفَ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٠ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ ٱللَّهِ﴾، فيقول ضيف: ((هذه الآيات جواب القسم في سورة التين، إذ افتتحها الله بالتين والزيتون رمزا إلى بيت المقدس منشأ رسوله عيسى عليه السلام، وتلاه بطور أو جبل الطور في سيناء الذي كلم عليه موسى عليه السلام، وذكر بعده البلد الأمين مكة التي نشأ فيها محمد وبذلك جمع الله في القسم الأماكن التي ترمز إلى رسله الثلاثة العظام: موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام إكراما لهم جميعا ولما أدوا إلى الناس من الديانات الإلهية الثلاث.))[63]، وهنا يتبنى ضيف ما رآه ابن قيم الجوزية الذي ربط دلالة القسم إشارةً بالزمكانية الحضارية لأعظم الرسالات السماوية وأصحابها من الرسل [64]، وهو ميل نحو ما نراه أيضا ذا منظور تاريخي حضاري يحاول تأصيل قراءة حضارية في تفسير القرآن الكريم من خلال انتقائه لبعض آراء المفسرين ودارسي القرآن الكريم.

8. الاستفهام في جواب القسم:

وفي عرف النحاة يخرج الاستفهام بالهمزة عن الاستفهام الحقيقي لثمانية معانٍ وهي للتسوية بوجود "أم"، وإلى الإنكار الإبطالي نحو قوله تعالى من سورة الطور/15: ﴿وَمِن قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن﴾، وإلى الإنكار التوبيخي فيقتضي أنّ ما بعدها واقع وإنّ فاعله ملوم نحو قوله تعالى من سورة الصافات/ 95: ﴿وَمِن جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن ٱللَّهِ﴾*، وإلى التقرير ومعناه حملك المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عند ثبوته أو نفيه ويجب أن يليها الشيء الذي تقرره به نحو قوله تعالى: " ء أنت فعلتَ هذا – الأنبياء/ 62"، وإلى التهكم نحو ما ذهب الزمخشري في قوله تعالى من سورة البقرة/106: ﴿وَمِن ١٠٦ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ خَلَصُواْ نَجِيّٗا قَالَ كَبِيرُهُمۡ﴾ وإلى الأمر نحو قوله تعالى من سورة آل عمران/ 20: ﴿وَمِن﴾ وإلى التعجب نحو قوله تعالى من سورة الفرقان/ 45: ﴿وَمِن خَلَصُواْ نَجِيّٗا قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ٱللَّهِ﴾، وإلى الاستبطاء نحو قوله تعالى من سورة الحديد/16: ﴿وَمِن عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾[65]، إذ تلحظ كلها جهة الاستجابة. وفي قوله تعالى من سورة الفجر/6: **ألم تر كيف فعل ربك بعاد** يقول ضيف: ((" ألم تر " قيل الاستفهام في الآية إنكاري، والأولى أن يكون تقريريا والرؤية إما علمية، لأن أخبار عاد وثمود معروفة لدى العرب. ويمكن أن تكون بصرية، إذا اتسع الخطاب واشتمل على أمة الرسول ومن شاهد منها آثار عاد وثمود والفراعنة.))[66]، والاختلاف يكمن في المعنى المجازي للاستفهام أ هو التقرير أم التوبيخ مع أنّ نفي الرؤية في "ألم تر" يمكن أنْ يستوعب معنى الإنكار والتوبيخ والتقرير والتعجب؛ لأنّ الرؤية يمكن أن تكون بصرية وعلمية، أما في قوله

(62) م. ن: 3/ 253.
(63) القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف: 92.
(64) التبيان في اقسام القرآن: 28-29.
* من الجدير أن نشير إلى أنّ الاستفهام إذا كان متوجه من جهة الخالق لخلقه، فهو استفهام غير حقيقي بل هو لأغراض أخرى فعلم الله كلي وشامل، ظ:اساليب الاستفهام في القرآن، عبد العليم السيد فودة، مؤسسة الشعب – شارع قصر لعيني بالقاهرة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، لاط، لات:191-192.
(65) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تأليف الإمام أبي محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، لاط، 2005م: 1/ 39- 41.
(66) القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف: 82.

تعالى من سورة النازعات/11-12: ﴿وَمِن مِنۢ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ٨٤ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ﴾، يقول ضيف: والاستفهام فيها ((للإنكار التعجبي أي أنحيا ونبعث بعد أن كنا أبعد شيء عن البعث والحياة أي إذ كنا عظاما نخرة بالية .وَمِن قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفۡتَؤُاْ تَذۡكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ عبّر الله هنا عن موقف المشركين بالفعل الماضي بينما عبر عن موقفهم يوم البعث بالفعل المضارع "ترجف – تتبعها" مما يدل على أنهم لم يقولوا ما ولى الفعل الماضي يوم البعث وإنما قالوه في الدنيا على سبيل الاستهزاء بما يقال عن البعث وعن يوم القيامة زاعمين أنها "كرة" أي رجعة "خاسرة"))[67]، فقد جمع ضيف بين الإنكار والتعجب في هذا المعنى المجازي للاستفهام ؛ ويمكن أن يكون قد لحظ ما تضمنه خطاب الاستفهام من إنكارهم للبعث الأخروي، ومن تعجبهم من إحياء عظامهم النخرة، وما يمكن أن ألحظه من نقاش وتحليل في تفسير ضيف للاستفهام الوارد هو ميوله إلى ربط التفسير بالموقف التاريخي، وهو موقف المشركين في الحياة الأولى وربط ذلك بتفريقه بين استعمال صيغة الماضي في "قالوا" وصيغة المضارع في "ترجف وتتبعها" التي يربطها بيوم البعث والنشور، فالمواقف وقائع إنسانية تعبر عن طبيعة فكر الإنسان ومستواه العقلي والحضاري والنفسي، وكيف أنّ هذه الطبيعة تتغير من موقف إلى آخر فالموقف الدنيوي ليس هو الموقف الأخروي بالنسبة للإنسان وإنْ عاش مشرك.

الخاتمة:

وفي هذا الجهد الحضاري القرآني الذي اتخذ من القسم القرآني موضوعا له نقول لقد بذل شوقي ضيف جهدا علميا ومنهجيا واضحا تمثّل برؤيته الحضارية في تطبيق مبدأ التيسير النحوي في تحليل النص القرآني، وهي رؤية فكرية تسير وفقا لمعطيات أصولية إسلامية ذات نكهة جامعية عربية، وقد ظهر ميوله إلى تعزيز الفهم النحوي والأسلوبي العربي الميسر، وقد رصدنا أدلة هذا الميول والمنهج، وقمنا بنقاشه وتحليله وبيان رؤيته الحضارية قدر المستطاع، وتحصلنا على بعض النتائج أهمها:

. انتقائه لأيسر الآراء التفسيرية، والتوجيه المعنوي الذي يبتعد عن التأويل.

. كانت المسائل النحوية في جهده تأتي وفقاً لضرورة ملحة لذلك هي قليلة ومحدودة.

. تحكمت ثنائية الحكمة الإلهية والمنفعة الإنسانية في بناء منهجه الميسِّر لنحو القسم القرآني؛ وذلك لتوجهاته الأدبية والحضارية في أعماله المنشورة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إحياء النحو، ابراهيم مصطفى، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1951م: 197.
- الأدب العربي بعد الخامس من حزيران (يونيو)، د. شكري محمد عياد، مؤتمر الأدباء العربي السابع– مهرجان الشعر العربي، بغداد، لاط، 1389هـ – 1969م.
- اساليب الاستفهام في القرآن، عبد العليم السيد فودة، مؤسسة الشعب – شارع قصر لعيني بالقاهرة، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، لاط، لات.
- إعراب القرآن، محمد جعفر الشيخ إبراهيم الكرباسي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط: 1، 1422 هـ – 2001م.
- إعراب القرآن لأبي جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس ت 338هـ، تحقيق د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، مكتبة النهضة العربية، ط:2، 1405 هـ –1985م.

(67) القسم في القرآن الكريم: 109.

- التبيان في اقسام القرآن، للعلامة شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيّم الجوزية ت 751 ه، صححه وعلق عليه فضيلة الشيخ طه يوسف شاهين من علماء الأزهر، دار الكاتب العربي، لا ط، لا ت.
- تفسير التبيان للشيخ الطوسي ت 460ه، مطبعة النعمان، النجف الاشرف، منشورات مؤسسة الاعلمي، بيروت، لاط، 1389ه – 1969م.
- تفسير غريب القرآن، لأبي محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة ت 276ه، تحقيق أحمد صقر، دار الكتب العلمية، بيروت، لاط، 1398ه – 1978م.
- تفسير الكشاف للزمخشري ت538ه، تح:محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، منشورات محمد علي بيضون، ط:3، 1424ه – 2002م.
- حروف المعاني بين الأصالة والحداثة – دراسة: حسن عباس، اتحاد الكتاب العرب – دمشق، 2000م.
- الحضارة والحداثة في الفكر العربي المعاصر، مجموعة مؤلفين:اعداد حبيب الله بابائي ورضا خرساني، تعريب:حسين صافي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الاسلامي، بيروت، ط:1، 2014م.
- ديوان النابغة الذبياني، تحقيق وشرح: كرم البستاني، دار صادر، دار بيروت، بيروت: 1383ه – 1963م.
- شرح الأشموني على ألفية ابن مالك (منهج السالك إلى ألفية ابن مالك)، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي بيروت، ط:1، 1375ه – 1955م.
- شرح المفصل للزمخشري، موفق الدين ابن يعيش ت 643 ه، تحقيق:إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، منشورات محمد علي بيضون، ط:1: 1422ه – 2001م.
- شعر زهير بن أبي سلمى، صنعة الأعلم الشنتمري، تحقيق د. فخر الدين قباوة، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط: 3، 1400 ه – 1980م.
- ظاهرة القسم في القرآن الكريم، فارس علي العامر، مهر، إيران، منشورات أنوار الهدى، ط:1، 1414 ه.
- في إصلاح النحو العربي – دراسة نقدية، تأليف: عبد الوارث مبروك سعيد، دار القلم، الكويت، ط:1، 1985م:123.
- القسم في القرآن الكريم، د. شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط: 1، ضمن سلسلة اقرأ عدد[666]:2001م.
- كتاب سيبويه لأبي بشر عمرو الملقب بسيبويه ت 180 ه، ويليه تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب، في علم مجازات العرب لمؤلفه يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري، تح. محمد الحسين الأعلمي، ط:3، 1410 ه– 1990م.
- كتاب قواعد اللغة العربية لتلاميذ المدارس الثانوية، حفني ناصف وآخرون، المطبعة الأميرية بالقاهرة، وزارة المعارف العمومية، ط:12، 1929م، صفحات التنبيه قبل صفحة رقم (1). وقد تضمن هذا الكتاب أيضا كتاباً أعد لتدريس البلاغة العربية عنوانه (دروس البلاغة لتلاميذ المدارس الثانوية) من تأليف حفني ناصف ومحمد بك دياب وسلطان بك محمد والشيخ مصطفى طموح الذي تقرر تدريسه سنة 1892م.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت 711 ه):دار المعارف، مصر: تح. عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، لاط، لات.
- مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى التيمي ت 210 ه في، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، تقديم أمين الخولي، السعادة، مصر، ج/1 في 1375 ه –1955م، وج/2 في 1962م.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء 207ه، عالم الكتب، بيروت، ط:3، 1403ه –1983م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تأليف الإمام أبي محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله بن هشام الأنصاري المصري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، لاط، 2005م.